تاريخ من الحروب

تأليف

جون كيغان

ترجمة

إسراء جمال

السعر: 10 دولار
أو ما يعـــادلـها

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء الترجمة	٩
شكر خاص	١١
شكر وتقدير	١٣
مقدمة	١٧
الفصل الأول	
الحرب في تاريخ الإنسان	٢٥
ما الحربُ؟	٢٧
من هو كلاوزفيتز؟	٤٣
الحرب كثقافة: جزيرة الفصح	٦٣
شعب الزولو	٧١
المماليك	٧٩
الساموراي	٩٣
ثقافة بلا حرب	١٠٣
فصل إضافي (١)	١٢٥
قيود الحرب	١٢٧

عينة للقراءة

الفصل الثاني

الحجر ١٥١
لماذا يتقاتل البشر؟ ١٥٣
الحرب والطبيعة البشرية ١٥٧
الحرب والأنثروبولوجيا ١٦٣
بعض الشعوب البدائية وحروبها: قبيلة يانومامي ١٧٩
قبيلة المارينج ١٨٧
شعب الماوري ١٩٥
إمبراطورية الأزتيك ٢٠٣
بدايات الحرب ٢١٧
الحرب والحضارة ٢٣٩
فصل إضافي (٢) ٢٥٧
التحصين ٢٥٩

الفصل الثالث

العنصر الحي ٣٠١
قائدو العجلات الحربية ٣٠٣
العجلة الحربية ودولة آشور ٣٢٧
حصان الحرب ٣٤١
شعوب الخيل ساكنو السهوب ٣٤٥
الهون ٣٥٣
أُفق شعوب الأحصنة (٤٥٣-١٢٥٨) ٣٦٣
العرب والمماليك ٣٧١
المغول ٣٨٧
تراجع شعوب الأحصنة ٣٩٩

عينة للقراءة

فصل إضافي (٣) ٤١٥
الجيوش ٤١٧

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الحديد ٤٤٣
الإغريق والحديد ٤٤٩
حرب الكتائب السلامية ٤٥٧
الإغريق والإستراتيجية البرمائية ٤٧٧
مقدونيا وذروة حرب الكتائب السلامية ٤٨٣
روما: المعقل الأم للجيوش المُعاصرة ٤٩٣
أوروبا بعد روما: قارة بلا جيوش ٥٢٥
فصل إضافي (٤) ٥٥٣
السوق العسكرية والإمدادات ٥٥٥

الفَصْلُ الخَامِسُ

النيران ٥٩٥
البارود والتحصين ٥٩٩
معارك البارود في العصر التجريبي ٦١٣
البارود في البحر ٦٢٥
استقرار البارود ٦٣٧
الثورة السياسية والتغيير العسكري ٦٤٩
قوة النيران وثقافة الخدمة العسكرية الشاملة ٦٦٩
الأسلحة النهائية ٦٨٣
القانون ونهاية الحرب ٧٠٧
الخاتمة ٧٢٣

عينة للقراءة

إهداء الترجمة

كنت في الخامسةَ عشرةَ من عمري عندما شرعتُ للمرة الأولىٰ في ترجمة نص، ورغم أن هذه المحاولة المبكرة لم تُكلَّلْ بالنجاح فقد كانت النافذةُ التي اكتشتفت من خلالها شغفي والطريق الذي أحب أن أسلكه في العلم= الترجمةَ. ثم تبلور الحُلم أكثرَ وتحدد، ووضعت نصب عينيَّ هدفًا واضحًا؛ أريد أن أصبح مُترجمة كتب -شتىٰ أنواع الكتب- وكانت الخطوة الأولىٰ علىٰ هذا الدرب هي التحاقي بكلية الألسن ودراستي الترجمة فيها.

منذ اللحظات الأولىٰ التي بدأتُ أُفصح فيها عن حُلمي الذي له أسعىٰ كانت تواجهني كلمة واحدة «مستحيل»! أو في بعض الأحيان كانت تُخفَّفُ قليلًا، فتصبح: «صعب جدًّا» . . . «ربما بعد سنوات من الترجمة في كل المجالات» . . . «من الصعب أن تثق دار نشر بحديثي التخرج، ربما ستُضطرين لتحمُّل نفقات الكتاب كلها وحدَك!» . . . وكنت أشعر آنذاك أن المنطق السليم يوافق تمامًا تلك الأقوال.

وإني لا أعرف -حقًّا- كيف استطاع قلبي أن يَبقىٰ قابضًا علىٰ اليقين في أنه لا مستحيلَ! كنتُ أدعو الله أن يُحقق لي حُلمي وأنا أتخبَّط بين أعمالٍ لا أُحبها وبالكادِ أتحملها. ثم جاءت الفرصة مرة، وتحمَّستُ لها كلَّ الحماس، ثم تَبدَّدَتْ وتلاشتْ قبل أن تبدأ، لتعيدني من جديد إلىٰ نقطة

«المستحيل». ثم أدركت بعد ذلك أن الله ﷻ لم يكتبها لي إلا لفرصةٍ أفضلَ كثيرًا وأعلىٰ قيمةً، ولا زلتُ لا أنسىٰ تلك المصادفة التي قبضْتُ علىٰ يدِ حُلمي وأوصلته إلىٰ هذه الكلمات التي أكتبها الآن، وأنا أذكر دعواتي لله ﷻ أن يُعينني ويحقق حلمي «المستحيل»، ها هي الآن «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا»! فالحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

لماذا أكتب هذا الكلام؟ أكتبه عسىٰ أن يقرأه شخص ما زال دَوِيُّ كلمة «مستحيل» -ذلك الحائط الذي تصطدم به أحلامنا إذا ما فتحنا أقفاص قلوبنا، وسمحنا لها بالتحليق قليلًا في أجواء المحيطين بنا- يُؤلمه فيَنفض عنه غبار اليأس ويَتَسَربَلُ باليقين في قدرة الله وهو يخوض معاركه في ميدان الحياة.

أخيرًا: أوجه خالص شكري وامتناني لكل من قدَّم لي يد العون؛ كي يخرج هذا العمل بهذه الصورة، أوجه شكرًا خاصًّا لأمي، وأ. أحمد سالم، وأ. محمد صلاح لدعمهما تجرِبتي الأولىٰ هذه. ولذلك «المستحيل» أُهدي كتابي هذا.

إسراء جمال

عينة للقراءة

شكر خاص

شكر خاص للزميل الكاتب والمترجم أ. **رضا شكر** لتقديمِه يدَ العون في ترجمة هذا العمل منذ البداية، وعلىٰ مدار عام كامل بشتىٰ الطرق الممكنة.

A Special Thank You!

A special thank you goes to my dear friend **Ashley Brower** for her great help and support.

I wouldn't be able to do it without your help!

عينة للقراءة

شكر وتقدير

لقد حدثتْ تغيُّرات جليلة في العالَم منذ أن بدأتُ في كتابة هذا الكتاب عام ١٩٨٩، وينبغي أولًا الاعتراف بهذه التغيُّرات . . .

انتهت الحرب الباردة وقامت في الخليج حرب جوية أرضية قصيرة ولكن مؤثرة، واندلعت في يوغوسلافيا السابقة حرب أهلية طويلة ووحشية، نيرانها ما زالت تَتَضَرَّمُ، ولقد أظهرت العديد من الأفكار المُتناولة في هذا الكتاب نفسها -علىٰ الأقل بالنسبة لي- في حروب الخليج ويوغوسلافيا، حيث أوقعت قوات التحالف هزيمة كلوزفيتزية[1]. علىٰ قوات صدام حسين في الخليج، إلا أن رفضه الاعترافَ بحقيقة الكارثة التي حلت به -من خلال اللجوء إلىٰ خطاب إسلامي مألوف، يُنكر كونَه قد هُزم روحيًّا مهما كانت الخسارة المادية التي تكبدها- قد سلب الانتصار الكلوزفيتزياني لقوات التحالف الكثير من نقاطه السياسية.

وكان بقاءُ صدام في السلطة -الأمر الذي يبدو أن المنتصرين قد رضخوا له- مثالًا رائعًا علىٰ عدم جدوىٰ «أسلوب الحرب الأوروبي» عندما يواجهه خَصمٌ يرفض مشاركة مُسلَّماته الثقافية. وقد يُنظر إلىٰ حرب الخليج في ضوء إحدىٰ وجهات النظر علىٰ أنها صراع بين ثقافتين عسكريتين مختلفتين تمامًا

(١) (نسبة إلىٰ كارل فون كلاوزفيتز). المترجمة

لكل منهما جذور تاريخية عميقة، ولا يمكن فهمُ أيٍّ منهما من خلال الأفكار التجريدية حول «طبيعة الحرب» نفسها؛ لأنه لا يوجد شيء من هذا القَبيل.

إن أهوال الحرب في يوغوسلافيا -والتي لا يُفهم منها إلا كونُها ثورةً يقومون بها في سبيل العقل المتحضِّر- ترفض الخضوع للتفسير في ضوء المصطلحات العسكرية التقليدية، وإن نمط الكراهية المحلية التي يُظهرونها غيرُ مألوف إلا لعلماء الأنثروبولوجيا المحترفين الذين يتخذون حرب الشعوب القبلية والهامشية موضوعًا للدراسة، ويُنكر العديد من العلماء وجودَ ظاهرة مثل «الحرب البدائية».

إن معظم قُراء الصحف الأذكياء -تلك الصحف التي تركت تقاريرها عن «التطهير العرقي»، وسوء المعاملة الممنهجة للنساء، وإشباع الرغبة في الانتقام، وتنظيم المجازر، وإخلاء إقليم وتركه غيرَ مأهول مثل هذا الانطباع الذي لا يُمحىٰ- سيَصعقهم التشابهُ الذي يمكن استخلاصُه من سلوك شعوب ما قبل الدولة الموصوفة في هذا الكتاب.

إنَّني مُمتنٌّ بشكل خاص للبروفسور «نيل وايتهيد» علىٰ التوجيه الذي منحني إيَّاه في رحلة البحث عن طريقي عبرَ أدب أنثروبولوجيا الحرب، فسُوء الفهم والتفسيرات الخاطئة إنما هي ناتجة عني. وكذلك مَدينٌ بالفضل للجنود المحترفين والمؤرخين العسكريين؛ حيث إن محاولاتي في جمْع صورة شاملة عن الأشكال التي اتخذتها الحرب عبر الزمان والمكان= أكثرُ عددًا من أن تُذكر. وقد لا يرغب الجميع في الارتباط بوجهة نظر كتلك التي أَحمِلُها، ولكنني مع ذلك أَوَدُّ أن أَذكُر أستاذي في كلية باليول (أ.ب. رودجر) الذي كان أوَّلَ من علمني التاريخ العسكري، والعميد (بيتر يونج) الحائز علىٰ وسام الخدمة المتميزة، والصليب العسكري، ورئيس قسم التاريخ العسكري في أكاديمية ساندهيرست العسكرية الملكية التي حاولت فيها تدريس المادة للمرة الأولىٰ، والدكتور (كريستوفر دوفي) زميلي من أكاديمية ساندهيرست، الذي

عين للقراءة

كانت معرفته العميقة بهابسبورغ والتاريخ العسكري العثماني أوَّلَ ما نبهني لفكرة كون الحرب سلوكًا ثقافيًّا.

وأُقدِّمُ خالص شكري لمحررتي الأمريكيَّة (إليزابيث سيفتون) علىٰ العمل الذي قامت به في المخطوطة، وإلىٰ محرري الإنجليزيِّ (أنتوني وايتوم) علىٰ العناية الدقيقة التي أَوْلاها لتحويل مخطوطتي لكتاب مطبوع، وإلىٰ (آن ماري إرليخ) لتجميعها الرسومَ التوضيحيَّةَ مرة أخرىٰ، وإلىٰ (آلان جيليلاند) لإعداد ورسم الخرائط، وإلىٰ (فرانسيس بانكس) لطباعته علىٰ الآلة مخطوطتي المكتوبة بخط يدي الذي تتزايد صعوبته. وكما هو الحال دائمًا أُقدِّمُ شكري إلىٰ وكيلي الأدبي (أنتوني شيل) الصديق الذي حظيت بصداقته ثلاثين عامًا. وأرغب في تقديم شكري بصفة خاصة إلىٰ (أندرو أورجيل) وطاقمه في المكتبة المركزية لأكاديمية ساندهيرست العسكرية الملكية، وهي واحدة من أعظم المكتبات العسكرية في العالم التي كنت محظوظًا بما فيه الكفاية ليَظَلَّ مسموحًا لي بدخولها، وإلىٰ طاقم مكتبة وزارة الدفاع وطاقم مكتبة لندن.

إنني مدين بالشكر لكثيرٍ من الأصدقاء في صحيفة «الدايلي تليغراف» بما فيهم (كونراد بلاك) و(ماكس هاستينجز) و(توم برايد) و(نيجال واد) -الذي رتَّب لي زيارة للخليج في نوفمبر عام ١٩٩٠، وإلىٰ يوغوسلافيا بين حروب كرواتيا والبوسنة- و(بيتر ألموند) و(روبرت فوكس) و(بيل ديديس)، و(جيريمي ديديس)، و(كريستوفر هدسون)، و(سيمون سكوت بلومر)، و(جون كولد ستريم)، و(ميريام جروس)، و(نايجل هورن)، و(نيك جارلاند)، و(مارك لاو)، و(تشارلز مور)، و(تريفور جروف)، و(هيو مونتجومري ماسنجبيرد)، و(أندرو هوتشن سون)، و(لويزا بول).

لقد وَطَّدَ أخي (فرانسيس) -من خلال اهتمامه بتاريخ عائلة والدتنا[1]- علاقتنا مع العديد من الجنود الذين رحلوا من أيرلندا للقتال في صفوف فرنسا

(١) (the Bridgmans of Toomdeely). المترجمة

في حروب لويس الخامسَ عشرَ. ويضرب (وينتر برجمان) باعتباره واحدًا منهم مثلًا علىٰ نموذج الضابط الدولي المحترف الذي يظهر إلىٰ حد كبير فيما يلي، والذي إليه اخترتُ أن أُهدي هذا الكتاب، وإنني لشديد الامتنان لأخي (فرانسيس) لكل ما قام به من عمل. وأخيرًا أتوجه بالشكر إلىٰ أصدقائي في كلمنجتون، ولا سيما (أونار ميدلام) و(مايكل ونيستا جراي) و(دون ومارجوري ديفيس)، وأتوجه بالحب كالعادة إلىٰ أبنائي وأبناء زوجتي (لوسي وبروكس نيومارك)، و(توماس)، و(روز)، و(ماثيو)، و(ماري)، وإلىٰ زوجتي الحبيبة (سوزان).

كيلمنجتون مانور
٩ يونيو ١٩٩٣

عينة للقراءة

مُقَدِّمَة

لم يُقدَّرْ لي أن أُصبح محاربًا بسبب مرضٍ ألمَّ بي في طفولتي عام ١٩٤٨، وتركني أعرجَ ما بَقِيَ حياتي، ولقد ظللتُ أعرجَ مدة خمسة وأربعين عامًا حتىٰ الآن، وعندما أبلغتُ الخدمة العسكرية الإجبارية عن الفحص الطبي لحالتي، هزَّ الطبيب الذي فحص ساقي رأسه -وقد كان حتمًا آخر طبيب يَفحصني هذا الصباح- وكتب شيئًا ما في استمارتي، وأخبرني أنَّ لي مطلق الحرية في المغادرة، وبعد بضعة أسابيع وصلتني رسالة رسمية لإعلامي بأنني قد صُنِّفتُ بشكل دائم غيرَ صالح للخدمة في أيٍّ من القوات المسلحة.

غير أن القدر أبىٰ إلا أن يُلقي بحياتي بين المحاربين، فكان أبي جنديًّا في الحرب العالمية الأولىٰ، ونشأت أنا في الحرب العالمية الثانية في المنطقة الإنجليزية التي تمركز فيها جنود الجيشين البريطاني والأمريكي المحتشدينِ لغزو أوروبا في «اليوم ي»[1]، واكتشفتُ بطريقة ما أن خدمة والدي علىٰ الجبهة الغربية عامَي ١٩١٧ و١٩١٨ كانت أهم تجرِبة في حياته، كما ترك مشهدُ التحضير للغزو عامَي ١٩٤٣ و١٩٤٤ بصمته في نفسي كذلك، وأثار بداخلي اهتمامًا بالشؤون العسكرية التي ضَربت بجذورها في نفسي، الأمر الذي دفعني لاختيار التاريخ العسكري موضوعًا متخصصًا لدراستي عندما ذهبتُ إلىٰ جامعة أكسفورد عام ١٩٥٣.

---

(١) بالإنجليزية (D-Day). المترجمة

وكان موضوع الدراسة المتخصص شرطًا للحصول علىٰ الدرجة العلمية لا أكثر، ما يَعني أن انغماسي في التاريخ العسكري كان من الممكن أن ينتهي عند التخرج، غير أن هذا الاهتمام قد ازداد تعمُّقًا في نفسي خلال سنوات دراستي الجامعية؛ لأن معظم الأصدقاء الذين تعرَّفتُ إليهم في جامعة أكسفورد كانوا -علىٰ عكسي- قد أدَّوْا خدمتهم العسكرية، فأشعروني أنني قد فقدت شيئًا. كان معظمهم ضُبَّاطًا، وخدم كثيرٌ منهم في الحملات العسكرية؛ حيث إن بريطانيا كانت تسعىٰ في أوائل الخمسينيات إلىٰ الانفصال عن الإمبراطورية في سلسلة من الحروب الاستعمارية الصغيرة، وكان بعض أصدقائي قد جُنِّدوا في أدغال مالايا أو غابات كينيا، حتىٰ إن القليل منهم -وهم الذين خدموا في الأفواج التي أُرسلت إلىٰ كوريا- قد خاضوا معركة حقيقية.

كانت الحياة المهنية الواقعية بانتظارهم، وكانوا يَسعون نحو النجاح الأكاديمي ورأي الأساتذة الجيد فيهم باعتبارها إجازةَ المرور إلىٰ المستقبل، ومع ذلك كان من الواضح بالنسبة لي أنَّ العامَينِ اللذين قَضَوْهما بالزي الرسمي قد أَلقَيَا عليهم سحرًا من عالم مختلف تمامًا عن ذاك الذي عزموا علىٰ دخوله. جزء من هذا السحر كان نابعًا من الخبرة، ومن الأماكن الغريبة والمسؤولية غير المألوفة، ومن الإثارة، ومن الخطر. وكان أيضًا سحر معرفتهم للضباط المحترفين الذين قادوهم، فأُعجب أساتذتنا بعلمهم واختلافهم الجوهري. واستمر أترابي في الإعجاب بالضباط الذين كانوا يعرفونهم لصفات أخرىٰ بالكلية؛ كالاندفاع والحماسة والحيوية، وانعدام صبرهم علىٰ الأمور المبتذلة.

كانت أسماؤهم غالبًا ما تُذكر، وشخصياتهم وتأنقهم المميز كانا يدوران في الأذهان، وكانت مآثرهم -وعلىٰ رأسها معارضاتهم الواثقة للسلطة- تُبعث من جديد. أصبحتُ أشعر بطريقة ما أنني أعرف أولئك المحاربين الذين لا يؤلون همًّا، وبالطبع كانت رغبتي في أن أعرف أشخاصًا مثلهم عارمةً،

عينة للقراءة

وأتمنىٰ لو أن لي فقط أن أُعبِّرَ عن نظرتي لعالم المحاربين الذي كان -بينما أنا أعمل علىٰ نصوصي المتعلقة بالتاريخ العسكري- يَتبلورُ ببطء في ذهني.

عندما وصلت الحياة الجامعية إلىٰ خط النهاية، غادرها أصدقائي ليصبحوا محامين، أو دبلوماسيين، أو موظفين حكوميين، أو أساتذة جامعيين. أما أنا؛ فقد وجدتُ أنَّ شفق سنواتهم العسكرية قد ألقىٰ بسِحرِه عليَّ، وقررتُ أن أكون مؤرخًا عسكريًّا، وكان قرارًا مُتهوِّرًا؛ حيث لم يكن هنالك إلا القليلُ من المناصب الأكاديمية في هذا الموضوع، ومع ذلك شَغَرَ مثلُ هذا المنصب بأسرع مما كان يَحق لي أن أتوقع في أكاديمية ساندهيرست العسكرية الملكية في الكلية البريطانية للطلاب العسكريين، وفي عام ١٩٦٠ أصبحت واحدًا من أعضاء هيئة التدريس. كنت في الخامسة والعشرين من عمري، ولم أكن أعلم شيئًا عن الجيش، فأنا لم أسمع قطُّ صوت إطلاق النار الغاضب، وقلما التقيتُ ضابطًا نظاميًّا، كما أن الصورة التي كانت في مخيلتي عن الجنود والجندية هي بالكامل من وحي خيالي.

وألقىٰ بي أول فصل دراسي أقضيه في أكاديمية ساندهيرست بلا رَوِيَّةٍ في عالَم ما كان لخيالي ليُهيِّئَني له، وفي عام ١٩٦٠ كانت هيئة العسكريين في الأكاديمية -وكنتُ أَنتمي للجانب الأكاديمي- قد تَشكَّلَتْ -علىٰ مستوًىٰ رفيعٍ- من الرجال الذين قاتلوا في الحرب العالمية الثانية حصرًا، وكان جميع الضُّباطِ المبتدئين تقريبًا محاربين قدامىٰ في كوريا ومالايا وكينيا وفلسطين وقبرص، أو أيٍّ من اثنتيْ عشرةَ حملةً عسكرية استعمارية أخرىٰ، وكانت ملابسهم مغطاة بشرائطَ من أوسمةِ الشرف، وأحيانًا كثيرة بجوائزَ رفيعةٍ لبَسالتهم، وكان رئيس قسمي -وهو ضابط متقاعد- يرتدي في أُمسِيَّات مطعم ضباط الصف وسامَ الخدمة المتميزة، والصليب العسكري، ومعهما شريطان من الأوسمة، ولم تكن امتيازاته هذه استثنائية، فقد كان هناك ضباط برتبة رائد أو عقيد يحملون أنواطًا لشجاعتهم، قد ظفروا بها في العلمين وكاسينو وأرنم وكوهيما، لقد كان

عينة القراءة

تاريخ الحرب العالمية الثانية مسطورًا علىٰ تلك الشرائط الحريرية الصغيرة التي كانوا يلبسونها برفق شديد، وكانت لحظاتها الحاسمة مُسجلة بالصلبان والأنواط التي بدا حاملوها -بالكاد- مدركين لحصولهم عليها.

ولم تكن أشكالُ الأنواط وحدَها ما سلب لُبِّي؛ بل سلبه أيضًا أشكال البِزَّات العسكرية، وكل ما كانت تدل عليه. وكان العديد من أترابي في الجامعة قد أحضروا معهم قصاصاتٍ من المجد العسكري المتمثل في السترات العسكرية، أو المعاطف البريطانية العسكرية[١]. . وبقي أولئك الذين كانوا ضباطًا في سلاح الفرسان يلبسون مع الملابس الرسمية المسائية أحذيةً طويلةَ الرقبةِ لامعةً من الجلد المغربي، مشقوقةً كعوبُها لوخز الخيل، تعود لزي الرماحين أو الهوصار[٢]. . وقد نبهني ذلك إلىٰ التناقض في أن الزي الموحَّد لم يكن زيًّا مُوحَّدًا، وإنما كانت الأفواج تختلف في ألبستها، فكم كان مختلفًا ما عَلَّمَتْنيه أكاديمية ساندهيرست في أول أمسية قضيتُها في نادي ضباط الصف هناك! كان هناك رماحون وفرسان «هوصار» يرتدون اللونين الأزرق والقرمزي، إلا أنَّ الفرسان العاديين كانوا أيضًا مَفتونين بثقل أشرطتهم الذهبية، وكان الرماة يرتدون اللون الأخضر الداكن جدًّا حتىٰ إنه لَيَبدو أسودَ تقريبًا. وكان جنود المدفعية يرتدون السَّراويلات الضيقة، والحراس يرتدون القمصان القاسية. أمَّا فرق الجبال فكانوا يرتدون ستة أنماط مختلفة من قماش الطرطان[٣]. ، وفِرَقُ المنخفضات يرتدون سراويلاتٍ مربعةَ النَّقش، ويرتدي مشاة أفواج البلاد القباب[٤]. باللون الأصفر، والأبيض، والرمادي، والأرجواني، والبرتقالي علىٰ ستراتهم.

---

(١) اسمها بالإنجليزية (British Warm)، وهي نوع من المعاطف الصوفية كان يرتديه ضباط الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولىٰ. المترجمة

(٢) الهوصار: جندي من وحدة أوروبية، وهو فارس مجري. المترجمة

(٣) نوع من القماش الصوفي الطويل اخترعه الاسكتلنديون. المترجمة

(٤) القباب: هي أجزاء صغيرة من النسيج مأخوذة من جزء منه تُستخدم لتزيين حواف الثوب. المترجمة

لقد كنت أظن أن الجيش جيشٌ واحدٌ، واكتشفت بعد ذاك المساء أنه ليس كذلك، وكان ما يزال علىٰ معرفة أن الاختلافات الشكلية للزي الرسمي تَنطِقُ باختلافات باطنية ذات أهمية أعظمَ كثيرًا، فلقد اكتشفت أن الأفواج تُعرِّفُ نفسها قبل كل شيء بشخصيتها الفردية، وأن شخصيتها الفردية كانت هي التي جعلت منهم تنظيماتٍ قتاليةً تأثيرها في أرض المعركة تُعلِنُه الأنواطُ والصُّلبان التي رأيتها من حولي. إن أصدقائي المنتمين إلىٰ الأفواج -حيث كان استعدادُ المحاربين لتكوين صداقات واحدًا من أحبِّ ميزاتهم- كانوا إخوة في السلاح، ولكنَّ أُخُوَّتهم كان لها حدٌّ، حيث كان الولاءُ للفوج هو المحكَّ في حياتهم، فالاختلاف الشخصي ربما يُغفَرُ في اليوم التالي. أما إهانة الفوج فما كانت لتُغفَرَ أبدًا، وفي الواقع لم يكن شخصٌ يتلفظ بها أبدًا، فمثل هذا الشيء كان يَمس بشدة قِيم القبيلة.

(القَبَلِيَّة) كان ذلك ما لاقيتُ، فالمحاربون القدامىٰ الذين قابلْتُهم في أكاديمية ساندهيرست في الستينات كانوا -بحُكمِ تجارِبَ خارجيَّةٍ عديدةٍ- لا يختلفون عن الرجال المحترفين في مناحي الحياة الأخرىٰ، لقد جاءوا من المدارس نفسها، وأحيانًا من الجامعات نفسها، وكانوا مُخلصين لأُسَرِهم، يَأْمَلون لأطفالهم الآمال نفسها التي يَأْمَلُها الرجال الآخرون، ويُقلقهم المال بالطريقة نفسها، وإن لم يكن المال قيمة أساسية أو مُحددة، أو حتىٰ ترقية داخل النظام العسكري، فالضباط بالتأكيد كانوا يتوقون للترقية، بَيْدَ أنها لم تكن القيمة التي يَقيسون بها أنفسهم. قد يكون القائد موضعًا للإعجاب، أو قد لا يكون، فالإعجاب مُستمَدٌّ من شيء غير شارات رتبته الرفيعة، ألا وهو سمعته كرجل بين الرجال الآخرين، وهذه السمعة تُبنىٰ علىٰ مدار سنوات عديدة علىٰ مرأىٰ قبيلته الفوجية، وقد كانت هذه القبيلة كِيانًا واحدًا ليس من الضباط الرفقاء وحسبُ، وإنما كانت ممن يحملون رتبة النقيب والجنود العاديين كذلك، وكان «عدم حُسن معاملة الجنود» إدانة أساسية للضباط،

عينة للقراءة

فالضابط قد يكون ذكيًّا وكفؤًا ومجتهدًا في عمله، ولكن لو أن أحد الجنود التابعين له قد أخفىٰ شكًّا نحوه؛ فإنَّ أيًّا من تلك الميزات لم تكن لِتَعْدِلَ، ولا يكون هو واحدًا من القبيلة.

إن الجيش البريطاني قَبَلِيٌّ إلىٰ أقصىٰ حدٍّ، فبعض أفواجه لها تاريخ يعود إلىٰ القرن السابعَ عشرَ عندما بدأت الجيوش الحديثة تتشكل فقط من الحشود الإقطاعية من المحاربين الذين دخل أسلافهم أوروبا الغربية أثناءَ الغزوات التي أطاحت بالإمبراطورية الرومانية، غير أنني قد لقيت قيم المحاربين القبلية نفسها في العديد من الجيوش الأخرىٰ علىٰ مرِّ السنين منذ انضَمَمْتُ إلىٰ أكاديمية ساندهيرست لأول مرة في شبابي. لقد لمستُ الهالةَ القَبَلِيَّةَ حول الضباط الفرنسيين الذين حاربوا في الجزائر، والذين كانوا يقودون جنودًا مسلمين تنتمي تقاليدهم لتقاليد الغازي، ولمستُها أيضًا في ذِكرىٰ الضباط الألمان -المُعاد تجنيدُهم لبناء الجيش الألماني بعد الحرب- الذين حاربوا الروس في السّهب[1]. ، وحافظوا علىٰ الكبرياء في المحنة التي قاسوها، والتي أعادت ذكرىٰ حروب أسلافهم في العصور الوسطىٰ، ولمستُها بقوة بين الضباط الهنود، ولا سيما في سُرعتهم في الإصرار علىٰ أنهم من «الراجبوت»[2]. أو «الدوجراس» أحفاد الغزاة الذين احتلوا الهند قبل بداية كتابة تاريخها، ولمسته بين الضباط الأمريكان الذين خدموا في فيتنام أو لبنان أو الخليج، مُمثِّلِينَ لرمزٍ من الشجاعة والواجب يعود لأصول جُمهوريَّتهم.

ليس الجنود كغيرهم من الرجال، هذا هو الدرس الذي تعلَّمته من الحياة بين المحاربين، ولقد عَلَّمني هذا الدرسُ أن أفحص كل النظريات والتصوُّرات المتعلقة بالحرب، والتي تساويها بأي نشاط بشري آخر بشكلٍ مُفرِطٍ؛ فالحرب

(١) السهب: سهل واسع خال من الأشجار. المترجمة

(٢) الراجبوت: مصطلح يطلق علىٰ أبناء قبائل تقطن غرب ووسط وشمال الهند وشرق باكستان. المترجمة

بلا شكٍّ تتصل -كما يُبيِّن واضعو النظريات- بالمجالات الاقتصادية والدبلوماسية والسياسية، ولكن هذا الاتصال لا يصل إلىٰ المطابقة أو حتىٰ التشابه. إن الحرب تختلف كليًّا عن الدبلوماسية أو السياسة؛ لأنه يجب أن يخوضها رجال لهم قيم ومهارات ليست كتلك التي يتميز بها السياسيون أو الدبلوماسيون، إنهم أولئك المنتمون إلىٰ عالَم منفصلٍ، عالَمٍ شديدِ القِدَمِ مُوازٍ للعالم المُعتاد، ولكن لا ينتمي له، وكلا العالمين يتغيران بمرور الوقت، فيتكيف عالَم المحاربين مع عالم المدنيِّين، يَتْبَعُه ولكن يترك مسافة بينهما، ولا يمكن أن تتقارب المسافة بينهما أبدًا؛ حيث إن ثقافة المحارب لا يمكن أن تكون أبدًا نَفْسَ ثقافة المدنيِّ. وتَدِينُ جميع الحضارات بأصولها إلىٰ المُحارب؛ فثقافاتها تُنشئ المحاربين الذين يُدافعون عنها، والفروق التي بينها ستجعل أولئك الذين ينتمون إلىٰ إحداها شديدي الاختلاف في المظاهر الخارجية عمن ينتمون إلىٰ أخرىٰ. إن أحد الأفكار الرئيسة المُتناولة في هذا الكتاب هي وجود ثلاثة تقاليد مميزة للمحارب من حيث المظهر الخارجي، إلا أنه في نهاية المطاف لا يوجد للمحارب إلا ثقافةٌ واحدة، وإنَّ تطوُّرَها وتحوُّلَها علىٰ مر الزمان والمكان -من بداية الجنس البشريِّ وحتىٰ وصوله إلىٰ العالم المعاصر- ألا وهي تاريخُ الحروب.

عينة للقراءة

الفصل الأول

الحرب في تاريخ الإنسان

عين القراءة

ما هي الحرب؟

«ليست الحرب استمرارًا للسياسة بوسائلَ أخرىٰ»، إذن لَكان العالم مكانًا أسهلَ فهمًا لو كان هذا القول المنسوب **لكارل فون كلاوزفيتز** صحيحًا. إن كلاوزفيتز -وهو محارب بروسيٌّ من الحروب النابليونية قضىٰ سنواتِ تقاعده في تأليفٍ قُدِّرَ له أن يكون الكتابَ الأشهرَ عن الحرب (واسمه: عن الحرب) علىٰ الإطلاق- قد كتب بالفعل أن الحرب هي استمرار «لعلاقات سياسية» (des politischen Verkehrs) «مع الامتزاج بوسائلَ أخرىٰ» (mit Einmischung anderer Mittel)[1] . . . ويعبر الأصل الألماني للمقولة عن فكرةٍ أكثرَ دقةً وتعقيدًا من الكلمات الإنجليزية التي كثيرًا ما تُقتبس، ومع ذلك فإنَّ فِكرَ كلاوزفيتز في كلتا الصِّيغتين غيرُ مكتملٍ؛ فهو يَقتضي ضمنًا وجودَ دولٍ ومصالحَ دوليَّةٍ وحسابًا عقلانيًّا لكيفية تحقيقها، إلا أنَّ الحرب تَسبِقُ الدولة والدبلوماسية والتخطيط الإستراتيجي زمنيًّا بآلاف السنين؛ فهي قديمة قِدَمَ الإنسان نفسه تقريبًا، وتصل إلىٰ الأماكن الأكثر سِرِّيَّةً في القلب البشري، تلك الأماكن حيث تُذيب النفسُ الغرضَ العقلانيَّ، ويَطغىٰ الفخرُ، وحيث تكون العاطفةُ هي صاحبةَ السُّلطة، وتكون الغريزة هي الملكةَ. لقد قال أرسطو: «الإنسان هو حيوان سياسي»،

(١) Carl von Clausewitz. On War (tr. J.J. Graham). London. 1908. I. p. 23

ولم يذهب كلاوزفيتز -وهو تلميذ أرسطو- إلىٰ أبعد من القول بأن الحيوان السياسي هو حيوانٌ صانعُ حربٍ، ولم يجرؤْ أحد علىٰ مواجهة فكرةِ أن الإنسان حيوان مفكِّر يوجه العقلَ فيه غريزةُ القنص والقدرةُ علىٰ القتل.

وليستْ مواجهة هذه الفكرة بأسهلَ علىٰ الإنسان المعاصر منه علىٰ ضابطٍ بُروسيٍّ وُلد حفيدًا لرجلِ دينٍ، وترعرع بين فِكر التنوير في القرن الثامنَ عشرَ. لقد ظلت قِيَمُنا الأخلاقية هي قيمَ الديانات السماوية العظيمة نفسها بالنسبة للتأثير الذي أحدثه كلٌّ من فرويد ويونج وأدلر علىٰ نظرتنا التي تُدِينُ إزهاقَ أرواح البشر في جميع الظروف، إلا أكثرها إكراهًا علىٰ ذلك، ويخبرنا علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ويشير علم الآثار إلىٰ أن أجدادنا غير المتحضرين ربما كانوا ذوي أسنانٍ ومخالبَ حمراءَ، ويسعىٰ التحليل النفسي إلىٰ إقناعنا بأن الوحشية الموجودة بداخل كلٍّ منا لا تَكمُنُ أبعدَ كثيرًا من الجلد، ونحن نُفضِّلُ -رغم ذلك- أن ندرك الطبيعة البشرية كما نجدها ظاهرة في السلوك اليومي للأغلبية المتحضرة في الحياة العصرية ناقصة -بلا شك- ولكنها بالتأكيد متعاونة ومطبوعة علىٰ حُب الخير في الغالب، ويبدو لنا أن الثقافة هي المُحدِّدُ العظيم لكيفية تصرف البشر أنفسهم؛ ففي المناظرة الأكاديمية التي لا هوادة فيها بين «الطبيعة والتنشئة» تحظىٰ مدرسة «التنشئة» بالدعم الأكبر من المتفرجين. إننا حيوانات ثقافية، وثراء ثقافتنا هو الذي يسمح لنا بقبول قابليتنا غير المشكوك فيها للعنف، ولكن مع الاعتقاد -رغم ذلك- بأنَّ إظهارَه انحرافٌ ثقافيٌّ، ودروس التاريخ تُذكِّرُنا بأن الدول التي نَعيش فيها ومؤسساتها وحتىٰ قوانينها قد وصلت لِما هي عليه بالصراع، والذي كان في أغلب الأحيان من أشد الأنواع وحشيةً، فوجبتنا الإخبارية اليومية تَجلب لنا تقاريرَ عن سفك الدم في مناطقَ غالبًا ما تكون شديدة القرب من أوطاننا، في ظروف تُنكر مفهومَنا للحياة الطبيعية الثقافية تمامًا.

إننا ننجح في نقل كلٍّ من دروس التاريخ والتحقيق الصحفي -علىٰ حد سواء- إلىٰ فئة خاصة ومنفصلة من «الغيرية»[١]. الأمر الذي يلغي تمامًا توقعاتنا للكيفية التي سيكون عليها عالمنا غدًا وبعد غدٍ. ولقد أطلقت مؤسساتنا وقوانيننا -كما نخبر أنفسنا- القابلية البشرية للعنف بمثل تلك الإجراءات التي تقتضي معاقبة العنف في الحياة اليومية بقوانيننا كالمجرمين، بينما سيتخذ استخدام مؤسسات دولتنا له الشكل الخاص «بالحرب المتحضِّرة».

تُعرف حدود الحرب المتحضرة بنوعين متناقضين من البشر، وهما المسالِم الرَّافض للحرب والعنف و«الحامل الشرعي للأسلحة»، فدائمًا ما كان يَحظىٰ الحامل الشرعي للأسلحة بالاحترام لو فقط؛ لأنه يملك الوسائل لجعل نفسه كذلك، كما أصبح المُسالم موضعًا للتقدير في ألفي عام هي مدة العصر المسيحي، وتبادُلِيَّتُهم ملموسة في الحوار بين مؤسس المسيحية والجندي الروماني المحترف الذي سأله كلمة الشفاء ليُعالِجَ خادمًا. لقد قال القائد الروماني شارحًا موقفه: «أنا أيضًا رجل خاضع للسلطة»[٢]، تَعَجَّبَ المسيح من اعتقاد القائد الروماني في قوة الفضيلة التي رآها الجندي تكملة لقوة القانون الذي يُمَثِّلُه، فهل لنا أن نَفترض أن المسيح قد اعترف بالموقف الأخلاقي للحامل الشرعي للأسلحة الذي يتوجب عليه أن يتخلىٰ عن حياته إذا ما أمرته السلطة، ومن ثَمَّ يتحمل المقارنة مع المُسالم الذي يُفضِّلُ التَّخلِّي عن حياته علىٰ انتهاك سُلطة عقيدته؟ إنها فكرة مُعقدة، ولكنها ليست تلك الفكرة التي يصعب علىٰ الثقافة الغربية استيعابها، فكرة يَجِدُ كلٌّ من الجندي المحترف والمُسالم الملتزم بداخلها متسعًا للتعايش وأحيانًا التلاصق، وفي الفرقة (ثلاثة مغاوير)[٣]

---

(١) الغيرية: هي فكرة أساسية للفلسفة الأوروبية الحديثة وتقابلها «الأنية»؛ فالآخر أو الغير هو مقابل «الأنا» وهو المحور المقصود، وبالتالي فإن الغيرية هي كل ما هو غير المحور المقصود أو كل ما هو غير النفس المستقلة. المترجمة

(٢) Luke 7: 6-8. Authorised Version

(٣) اسمها بالإنجليزية: (3 Commando) - المترجمة

-واحدة من أكثر وَحدات الحرب العالمية الثانية البريطانية صرامة- كان حَمَلَةُ النَّقَّالات جميعهم مُسالِمين، ولكنهم كانوا مَحَطَّ أعلىٰ درجات إعجاب الضابط القائد واحترامه؛ نظرًا لشجاعتهم واستعدادهم للتضحية بأنفسهم. وفي الواقع لم تكن الثقافة الغربية لتكون ما هي عليه إلا بقُدرتها علىٰ احترام كلٍّ من الحامل الشرعي للأسلحة والشخص الذي يَعتقد أنَّ حمْلَ السلاح غيرُ شرعي في جوهره. وتبحث ثقافتنا عن حلول توفيقية، والحل الوسط الذي توصلت إليه بشأن قضية العنف الشائع هو استنكار إظهاره إلا بإضفاء الشرعية علىٰ استخدامه، وقد رُفع قدر الدعوة إلىٰ السلام حدَّ المثالية، أما الحمل الشرعي للأسلحة -بموجب قانون صارم للعدالة العسكرية وضمن حدود مجموعة قوانين الشريعة الإنسانية-؛ فقد قُبِلَ به كضرورةٍ فعليةٍ.

كانت الصيغة التي اختارها كلاوزفيتز للتعبير عن الحل الوسط الذي ارتضته الدول التي يعرفها هي «الحرب كاستمرار للسياسة»، الأمر الذي أضفىٰ الاحترام علىٰ أخلاقياتهم السائدة -وهي السيادة المُطلقة، والدبلوماسية المطلوبة، والمعاهدات المُلزمة قانونيًّا- مع مراعاة المبدأ الرئيس المتمثِّل في مصلحة الدولة، وتلك الصيغة وإن لم تعترف بهدف الدعوة إلىٰ السلام -الذي كان الفيلسوف البروسيُّ كانط ينقله فقط من المجال الديني إلىٰ السياسي- فمن المؤكد أنها قد ميَّزت بوضوح بين الحامل الشرعي للأسلحة، والمتمرد، والقرصان، وقاطع الطريق، وهي تفترض مُسْبَقًا وجود مستوًىٰ عالٍ من الانضباط العسكري، ودرجة رهيبة من الطاعة من المرؤوسين لرؤسائهم الشرعيين، كما توقعت أن تَتخذ الحرب أشكالًا مُحددة قابلة للتعريف الدقيق -كالحصار، والمعارك المنظمة، والمناوشات، والغارات، والاستطلاعات، والدوريات، والمهام الحدودية العسكرية- لكلٍّ منها أعرافُها المُعترف بها، وافترضت أنَّ للحروب بدايةً ونهايةً. ولقد كان ما لم تَحسِبْ له حسابًا علىٰ الإطلاق هو الحرب التي لا بدايةَ لها ولا نهاية -الحرب المتوطنة من غير

عينة للقراءة

الخاتمة

«ما هي الحرب؟»، بهذا السؤال استهللت كتابي هذا. والآن بعد أن أنهيته وإذا كان القارئ قد اتبعني حتىٰ النهاية فإني آمل أن أكون قد اجتررت إلىٰ ساحة الشك الاعتقاد بأن هناك إجابة بسيطة لذلك السؤال أو بأن الحرب لها أي طبيعة وحيدة، كما أنني آمل أيضًا أن أكون قد ألقيت ظلالًا من الشك علىٰ فكرة أن الإنسان محكوم عليه بشن الحروب أو أن قضايا العالم يجب أن تُسوىٰ في نهاية المطاف بيد العنف. إن التاريخ المكتوب للعالم هو بشكل عام تاريخ للحروب؛ لأن الدول التي نعيش في أكنافها قد وُلدت من رحم الغزوات أو الصراعات المدنية أو النضال من أجل الاستقلال، بالإضافة إلىٰ أن رجال الدولة العظماء في التاريخ المكتوب كانوا بشكل عام رجال عنف لأنهم تعلموا -وإن لم يكونوا هم أنفسهم محاربين رغم أن العديد منهم كانوا كذلك- استخدام العنف ولم يقتصر علىٰ استخدامه من أجل غاياتهم.

وفي هذا القرن شوَّهت وتيرة وشدة صناعة الحرب أيضًا توقعات الرجال والنساء العاديين؛ ففي أوروبا الغربية والولايات المتحدة وروسيا والصين مست مطالب الحرب أغلبية من العائلات علىٰ مدىٰ جيلين أو ثلاثة أجيال أو أربعة، حيث أخذ النداء إلىٰ حمل السلاح الأبناء الذكور والأزواج والآباء والأخوة بالملايين إلىٰ ساحة المعركة ولم يعد الملايين منهم، كما شوهت الحرب المشاعر الأكثر رقة لشعوب بأكملها وتركتهم

معتادين علىٰ توقع أن حيوات أبنائهم وأحفادهم قد لا تمسها المحن التي عانوا هم أنفسهم منها. ومع ذلك لا يعرف الناس في حياتهم اليومية إلا قليلًا من العنف أو حتىٰ من القسوة أو المشاعر الجافة، فإن روح التعاون وليس التصادم هي ما يجعل العالم يدور، ومعظم الناس يقضون معظم أيامهم متحلين بروح الصحبة ساعين بكل وسيلة تقريبًا إلىٰ تجنب الشقاق وتبديد الخلاف، ويُعتقد أن الجيرة هي أفضل الفضائل الشائعة وأن لين القلب هو أكثر سمات الشخصية التي تلقىٰ ترحيبًا.

يجب أن نُدرك أن الجيرة تزدهر في ظل قيود صارمة من ضبط النفس؛ فالمجتمعات المتحضرة التي نحب أكثر ما نحب العيش في أكنافها يحكمها القانون، مما يعني أنها محمية بقوات الشرطة، وفرض قوات الشرطة هو شكل من أشكال الإكراه، وفي قبولنا لقوات الشرطة إقرارًا صامتًا بأن الإنسان لديه في طبيعته جانب مظلم يجب أن يُقيد وأن أداة هذا التقييد تتمثل في قوة أعظم نفوذًا. ومع ذلك رغم إمكانية العنف إلا أننا نمتلك أيضًا قدرة علىٰ الحد من آثاره حتىٰ وإن لم توجد قوة أعظم نفوذًا تقف «علىٰ استعداد» لتجنيبنا أسوأ ما نستطيع فعله، ولهذا السبب تُعد ظاهرة الحرب «البدائية» -بدراسة استُهل بها هذا الكتاب- تثقيفية للغاية، ولأن حروب هذا القرن اتخذت شكلًا متطرفًا لا يعرف الرحمة فقد أصبح سهلًا جدًّا علىٰ الإنسان الحديث أن ينزلق إلىٰ افتراض أن النزعة إلىٰ التطرف في الحروب أمر لا مفر منه. لقد أضفت الحروب الحديثة علىٰ الاعتدال أو ضبط النفس سمعة سيئة؛ حيث يُنظر إلىٰ الاستراحات الإنسانية أو التوسطات نظرة تهكمية باعتبارها وسيلة يُخفف بها ما لا يطاق أو يُخفىٰ. غير أن الإنسان صانع الحرب -كما يُظهر «البدائيون»- لديه القدرة علىٰ وضع حد لطبيعة معاركه وآثارها؛ فالشعوب البدائية تلجأ إلىٰ كل أنواع الوسائل التي تجنبها هي وأعدائها علىٰ حد سواء أسوأ ما يمكن أن يحدث: أحد هذه الوسائل هي الإعفاء؛ أي

عبقة للقراءة

إعفاء أفراد محددين من المجتمع -هم النساء والأطفال وغير اللائقين وكبار السن- من القتال وعواقبه، كما تُعد الاتفاقيات وسيلة ثانية، وخصوصًا الاتفاقيات المتعلقة باختيار وقت الصراع ومكانه وموسمه واختيار ذريعة له، وأهم هذه الوسائل هي الطقوس التي تحدد طبيعة القتال نفسه وتتطلب أن يُدرك المتنافسون -بمجرد تحديد الطقوس التي كانت تؤدىٰ- حقيقة رضاهم والتجاءهم إلىٰ المصالحة والتحكيم وصناعة السلام.

ومن المهم -كما قيل- ألا نضفي علىٰ الحروب البدائية سمة المثالية؛ فقد كانت تلك الحروب ربما تأخذ منعطفًا خطيرًا يُضرب فيه بالاستثناءات والاتفاقيات والطقوس عرض الحائط ويرتفع فيه العنف إلىٰ مستوىٰ عالٍ، وربما يكون لهذا العنف آثار مادية -حتىٰ عند التقيد بقيوده- لا يرغب بها أولئك الذي يعانون منها. وكان أهم ما في الأمر هو النزوح التدريجي للفريق الأضعف من المناطق المألوفة إلىٰ أراضٍ أسوأ؛ فنزوح كهذا ربما يلحق ضررًا بالثقافة التي تحميها عادة القيود الثقافية المفروضة علىٰ صناعة الحرب أو حتىٰ يدمرها في نهاية المطاف. وجدير بالذكر أن الثقافات ليست مكتفية بذاتها كفاية مُطلقة؛ فلديها أوجه هشاشة عرضة للتأثيرات العدائية، ومن بين تلك التأثيرات تُعد صناعة الحرب واحدة من الأكثر استفحالًا.

ومع ذلك تُعد الثقافة عاملًا رئيسًا مُحددًا لطبيعة الحرب كما يُظهر تاريخ تطورها في آسيا بوضوح؛ فصناعة الحرب الشرقية -إن كان بإمكاننا تعريفها بذلك وتسميتها بشيء مختلف ومنفصل عن الحرب الأوروبية- تُميزها سمات خاصة بها، يأتي في مقدمتها المراوغة والتأجيل وانعدام المباشرة، وبالنظر إلىٰ الديناميكية غير العادية والقسوة التي وسمت الحملات العسكرية التي قام بها أتيلا الهوني وجنكيز خان وتيمورلنك ربما يبدو هذا التوصيف غير مناسب كُليًّا. ومع ذلك يجب النظر إلىٰ تلك الرحلات في سياقها؛ فعلىٰ مدىٰ السنوات الثلاثة آلاف التي كان ركوب الخيل فيها أداة رئيسة في صناعة

عبقة للقراءة

الحرب تبدو هذه الرحلات وكأنها توقفات متباعدة تمامًا أكثر من كونها سمة ثابتة ومنتظمة في التاريخ العسكري لأوراسيا. وبالطبع كان التهديد الذي شكله المحارب الفارس أمرًا ثابتًا في تلك الألفيات، ولكنه كان قابلًا للاحتواء عادة لأسباب أقلها أسلوب القتال الذي كان المحارب يُفضله، وهو في الواقع أسلوب كانت فيه المراوغة والتأجيل وانعدام المباشرة أهم السمات، وكان اختيار المحاربين الفرسان هو القتال عن بعد واستخدام القذائف بدلًا من الأسلحة الحادة والانسحاب عند ملاقاتهم بحزم والاعتماد علىٰ إنهاك العدو حتىٰ الهزيمة بدلًا من الإطاحة به في لقاء وحيد بين الأسلحة.

لذلك السبب كان يمكن عادة للمدافع الذي كان يلجأ إلىٰ دفاعات ثابتة مبنية علىٰ محيط المنطقة التي توطن فيها الفارس كبح حرب الفرسان بنجاح، وقد وجد أن قيادة قطعان الخيل الكبيرة التي يملكها خارج تلك المنطقة صعب في جميع الأحوال، ولو كانت هناك عراقيل تعيق الحركة الحرة أكثر -مثل سور الصين العظيم والشيرتا الروسية- فقد تُحبط قدرته علىٰ القيام بالحملات العسكرية تمامًا. ورغم ذلك نجح بعض المحاربين الفرسان في نهاية المطاف في اختراق الأراضي المستوطنة وتوطيد أنفسهم حكامًا دائمين عليها، وكان من أبرزهم المغول في الهند والتُرك العثمانيون بالإضافة إلىٰ مجموعات المماليك الذين سيطروا علىٰ السلطة -في أوقات شتىٰ- داخل الأراضي العربية. ومع ذلك -كما رأينا- لم ينجح حتىٰ هؤلاء الغزاة الفرسان الناجحون في تحويل الدافع الاستعماري إلىٰ نمط حكم مبدع وبناء، بل ظلوا متشبثين بثقافة المخيم والحصان والقوس، كما كانوا لا يزالون يعيشون حياة القادة الرُحَّل حتىٰ عندما أقاموا إقامة مُترفة في عواصم الإمبراطوريات التي أطاحوا بها، وعندما تحدتهم في نهاية المطاف قوىٰ جديدة كانت قد تكيفت مع التغير التكنولوجي الحقيقي في الحروب حرمهم جمودهم الثقافي من فرصة الاستجابة الفعالة للتحدي وانتهىٰ الأمر بإطفاء جذوتهم.

ومن المفارقات أنه رغم ذلك كان هناك بعد لصناعة الحرب الشرقية -التي لم تظهر علىٰ الساحة إلا بعد الحروب الغربية- استثمرها في تحقيق هدف هائل ولكنه ذاتي الحد، ذلك البعد كان أيديولوجيًّا وفكريًّا؛ فقبل وقت طويل من توصل أي مجتمع غربي إلىٰ فلسفة حول الحرب كان الصينيون قد أبتكروا فلسفة، حيث قادهم المفهوم الكونفوشيوسي عن العقلانية والاستمرارية والحفاظ علىٰ المؤسسة المجتمعية إلىٰ البحث عن وسائل لإخضاع دفعة المحارب لقيود القانون والعرف. ولم يكن من الممكن الحفاظ علىٰ هذا المفهوم دائمًا، وهذا ما كان بالفعل؛ فالفوضىٰ الداخلية والغزوات القادمة من السهب -وقد كانت تلك الغزوات في أغلب الأحيان هي السبب وراء الفوضىٰ- حالتا دون ذلك. ومع ذلك كانت السمة الأكثر استمرارًا في الحياة العسكرية الصينية هي الاعتدال، حيث كان الهدف منها هو الحفاظ علىٰ الأشكال الثقافية أكثر منه خدمة ضرورات الغزو الأجنبي أو الثورة الداخلية، وكان من بين أعظم الإنجازات الصينية تطبيع المتطفلين الناجحين القادمين من السهب بالطابع الصيني وإخضاع سماتهم المدمرة للقيم المركزية للحضارة.

وجدير بالذكر أن التقيد في صناعة الحرب كان أيضًا سمة من سمات الحضارة المهيمنة الأخرىٰ في آسيا، ألا وهي الحضارة الإسلامية. غير أن التصور للإسلام يخالف ذلك؛ فالدين الإسلامي يُنظر إليه علىٰ نطاق واسع علىٰ أنه دين غزو وأن أحد أكثر معتقداته انتشارًا هو الالتزام بشن الحروب المقدسة ضد غير المؤمنين، وتاريخ الفتح الإسلامي والطبيعة الدقيقة لعقيدة صناعة الحرب المقدسة كلاهما يُساء فهمه خارج المجتمع الإسلامي. وقد كان عصر الفتوح قصير الأجل نسبيًّا ولم ينتهِ لمجرد أن خصوم الإسلام تعلموا كيفية حشد معارضة له وإنما أيضًا لأن العالم الإسلامي نفسه أصبح منقسمًا حول أخلاقيات صناعة الحرب، ونظرًا لتمزق العالم الإسلامي بسبب النزاعات الداخلية التي وضعت المسلمين في مواجهة بعضهم البعض -الأمر الذي كان

عينة للمراجعة

مخالفة لتعاليم الدين بأن المسلم يجب ألا يقاتل أخاه المسلم- فقد اختارت سلطته العليا الحل المتمثل في إسناد دور صناعة الحرب إلىٰ طبقة اختصاصية تابعة من المحاربين المجندين لهذا الغرض، وبالتالي تحرير الأغلبية من الالتزام العسكري والسماح للأتقياء بأن يُشددوا في حيواتهم الشخصية علىٰ الجانب «الأعظم» بدلًا من الجانب «الأقل» للأمر الزجري بشن حرب مقدسة، أي «الحرب ضد النفس». وبما أن الاختصاصيين الذين اختارهم العالم الإسلامي لشن الحرب باسمه مُجندون في المقام الأول من فرسان السهوب الذين رفضوا تكييف ثقافتهم العسكرية مع الظروف المتغيرة حتىٰ عندما وضع احتكارهم للأسلحة مقاليد السلطة في أيديهم فقد أصبحت صناعة الحرب الإسلامية في النهاية محدودة تقريبًا كما كان الحال داخل الحضارة الصينية. وكان لآثار ذلك داخل الثقافة فائدة واسعة النطاق؛ فبمجرد أن واجهت تلك الثقافة القوة الكاملة لثقافة أخرىٰ -لم تعترف بأي من القيود التي فرضتها التقاليد الشرقية علىٰ نفسها- استسلمت لقسوة لم تكن مستعدة أو قادرة علىٰ حشد الجند لها ولو بغرض الدفاع عن نفسها.

تلك الثقافة كانت غربية، وكانت تتألف من ثلاثة عناصر: عنصر مستمد منها هي نفسها، وعنصر ثانٍ مستعار من الاستشراق، وعنصر ثالث جلبته إليها قدرتها علىٰ التكيف والتجريب، تلك العناصر الثلاثة هي علىٰ التوالي أخلاقية وفكرية وتقنية. العنصر الأخلاقي يعود إلىٰ إغريقي العصر الكلاسيكي؛ حيث كانوا هم من تحرروا تمامًا -في القرن الخامس قبل الميلاد- من قيود الأسلوب البدائي -باحترامه للطقوس في الحرب قبل كل شيء- واعتمدوا ممارسة القتال وجهًا لوجه حتىٰ الموت، وكان هذا التحرر -الذي اقتصر في البداية علىٰ الحرب بين الإغريق أنفسهم- صادمًا بشدة لمن هم خارج العالم الإغريقي الذين تعرضوا له للمرة الأولىٰ. إن قصة لقاء الإسكندر الأكبر ببلاد فارس -الإمبراطورية التي اشتمل أسلوبها في صناعة الحرب علىٰ عناصر كلٍّ

من الطقوس البدائية ومراوغات الفرسان- تُعد تاريخًا حقيقيًا -حيث رواه آريانوس- ونموذجًا للاختلاف الثقافي، فالإمبراطور دارا الأول شخصية مأساوية بحق؛ لأن الحضارة التي مثلها كانت غير مستعدة تمامًا لمقاتلة الأعداء الذين لم يكن من الممكن شراؤهم أو إقناعهم بعد ظفرهم بأفضلية، والذين كانوا يسعون دومًا إلىٰ اقتياد المشكلة إلىٰ ساحة القتال، والذين كانوا يقاتلون في المعركة كما لو كان لنتيجتها الفورية الأولوية علىٰ كل الاعتبارات الأخرىٰ بما فيها اعتبارات النجاة الشخصية. ويُجسد موت دارا الأول علىٰ أيدي حاشيته -الذين كانوا يرجون بتركهم جثته ليعثر عليها الإسكندر الأكبر أن ينقذوا أنفسهم- الصدام الثقافي بين النفعية والشرف في هذين النظامين الأخلاقيين المختلفين في صناعة الحرب تمامًا.

لقد شق الخُلق المتعلق بالقتال في المعركة حتىٰ الموت علىٰ الأقدام -ويجب أن نذكر أنه موت «علىٰ الأقدام» لأنه مرتبط بجند المشاة أكثر منه بقتال الفرسان- طريقه بعد ذلك من الإغريق إلىٰ الرومان من خلال وجود المستعمرين الإغريق في جنوب إيطاليا، ولم يُعد تشكيل كيفية نقله -الأمر الذي لا شك في حدوثه- إلىٰ الشعوب التيوتونية التي خاضت معها روما معاركها الحاسمة التي لم تنجح في النهاية من أجل البقاء وربما لن يُعاد أبدًا. ومع ذلك كان الغزاة التوتونيون بلا شك محاربين يقاتلون وجهًا لوجه، ولكنهم لهذا السبب ما كانوا بكل تأكيد ليهزموا الجيوش الرومانية حتىٰ جيوش الدولة المنهكة التي نزلوها من الإمبراطورية الغربية في آخر قرن، وكان الإنجاز المميز الذي حققته الممالك التوتونية اللاحقة هو دمجها أسلوب القتال وجهًا لوجه مع القتال من فوق ظهور الخيل كيما يتسنىٰ للفارس الغربي -بخلاف بدو السهب- التركيز علىٰ هجومه ضد المجموعة الرئيسة في جيش العدو بدلًا من مناوشته من علىٰ بعد مسافة. ولكن أسلوب القتال وجهًا لوجه كان غالبًا ما ينهار أمام الخصوم العرب والمماليك الذين واجهوهم في النهاية في الحملات الصليبية

عينة للقراءة

علىٰ الأراضي المقدسة؛ فلم يكن من الممكن جعل الهجوم المُحكم ناجحًا ضد عدو لم يكن يرىٰ أي عار في تجنب الاشتباك. ومع ذلك كان هناك تبادل ثقافي ذو أهمية عظيمة نتج عن الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الشرق الأوسط؛ ذلك أن هذا الصراع قد حل المعضلة المسيحية المتأصلة حول أخلاقيات صناعة الحرب من خلال نقل النظام الأخلاقي المتعلق بالحرب المقدسة إلىٰ الغرب، الأمر الذي كان سيغلف بعد ذلك الثقافة العسكرية الغربية ببعد أيديولوجي وفكري كانت تفتقر إليه حتىٰ ذلك الوقت.

ولم يكن الجمع بين أسلوب القتال وجهًا لوجه -الذي كانت أخلاقيات الشرف الشخصي جزءًا لا يتجزأ منه- وذلك البعد الأيديولوجي ينتظر بعد ذلك إلا إضافة العنصر التكنولوجي لإنتاج الأسلوب الغربي النهائي في صناعة الحرب، وبحلول القرن الثامن عشر -عندما كانت ثورة البارود قد لاقت قبولًا وكانت الأسلحة البارودية قد بلغت حد الكمال- ظهر هذا العنصر علىٰ الساحة. إن السؤال عن السبب وراء أن الثقافة الغربية كان ينبغي أن تكون مفتوحة أمام التغييرات التي طرحتها التكنولوجيا -في حين لم تكن الثقافة الآسيوية كذلك (ولا البدائية -التي في طبيعتها- علىٰ الأطلاق)- لسؤال ينتمي إلىٰ مكان آخر، غير أننا ينبغي أن نُدرك أن العامل الرئيسي في إغلاق الثقافة الآسيوية أمام تكيف كهذا كان التزامها بمفهوم التقيد العسكري الذي كان يتطلب من النخبة الإصرار علىٰ استخدام الأسلحة التقليدية واحتكارها -مهما كانت بائدة بالمقارنة مع الأسلحة الشائعة في أماكن أخرىٰ- وإن هذا الإصرار كان شكلًا عقلانيًّا تمامًا للسيطرة علىٰ الأسلحة. ولقد سلك العالم الغربي -بتخليه عن التحكم بالأسلحة- مسارًا مختلفًا أسفر عن شكل الحرب الذي قال كلاوزفيتز أنه كان الحرب نفسها؛ أي استمرارًا للسياسة -الأمر الذي اعتبره هو فكريًّا وأيديولوجيًّا- عن طريق القتال -الذي اعتبره قتالًا وجهًا لوجه- بأدوات الثورة التكنولوجية الغربية التي اعتبرها من المسلَّمات.

عبقة للقراءة

وقد كان الأسلوب الغربي في الحروب سيحوذ كل هذه القوة في السنوات التي تلت وفاة كلاوزفيتز، وخلال القرن التاسع عشر أصبحت جميع الشعوب الآسيوية -باستثناء الصينيين واليابانيين والتايلانديين ورعايا الترك العثمانيين- خاضعة للحكم الغربي، أما الشعوب البدائية في الأمريكتين وإفريقيا والمحيط الهادئ فلم يكن لديها أي فرصة علىٰ الإطلاق. عدد قليل من شعوب المناطق النائية التي يصعب الوصول إليها -مثل التبت ونيبال وإثيوبيا- أثبت وحده أن إخضاعه لسيطرة الإمبراطورية أمر شديد الصعوبة، رغم أنهم جميعًا قد عانوا من الغزوات الغربية، وخلال النصف الأول من القرن العشرين حتىٰ الصين استسلمت -علىٰ أيدي اليابانيين المستغربين- بينما اجتاحت الجيوش الغربية أيضًا معظم الأراضي العثمانية. وحدهم تُرك تركيا -ذلك العرق من المحاربين الأشداء الأذكياء الدؤاهي الذين لقنوا أعداءهم الكثير من الدروس العسكرية القاسية حتىٰ من خلال بيئة الحصان والقوس غير المُرضية- ظلوا غير خاضعين حتىٰ بزغ نجمهم في منتصف القرن باعتبارهم دولة مستقلة.

ومع ذلك كان انتصار الأسلوب الغربي في الحروب محض وهم؛ حيث أثبت كونه لا يُقاوم عند مواجهة ثقافات عسكرية أخرىٰ، ولكنه عندما انغلق علىٰ نفسه تسبب بكارثة وهدد بوقوع مصيبة؛ فقد أنهت الحرب العالمية الأولىٰ -التي وقع القتال فيها بشكل حصري تقريبًا بين الدول الأوروبية- الهيمنة الأوروبية علىٰ العالم وأفسدت -بالمعاناة التي تسببت بها للسكان المشاركين- ما كان أفضل ما في حضارتهم -وهو التحرر والتفاؤل- ومنحت العسكريين والاستبداديين دور إعلان المستقبل. هذا المستقبل الذي أرادوه جاء بالحرب العالمية الثانية التي أكملت ما بدأته الأولىٰ من خراب، كما جاء أيضًا بتطوير الأسلحة النووية التي كانت الذروة المنطقية للاتجاه التكنولوجي في الأسلوب الغربي في الحروب والرفض النهائي للقول بأن الحرب كانت -أو قد تكون- استمرارًا للسياسة بوسائل أخرىٰ.

عينة للقراءة

إن السياسة يجب أن تستمر، أما الحرب فلا. ولا يعني ذلك أن دور المحارب قد أنتهىٰ؛ فالمجتمع الدولي بحاجة -أكثر من أي وقت مضىٰ- إلىٰ محاربين ماهرين ومنضبطين علىٰ استعداد لوضع أنفسهم في خدمة سلطته، ومثل هؤلاء المحاربين يجب أن يُنظر إليهم كما ينبغي باعتبارهم حُماة الحضارة وليسوا أعداءها. ولا يمكن أن يُستمد الأسلوب الذي يقاتلون به من أجل الحضارة -ضد المتعصبين العرقين وقادة الحروب الإقليميين والمتعنتين الأيديولوجيين والنهَّابين المنتشرين والمجرمين الدوليين المنظمين- من النموذج الغربي في صناعة الحرب وحده؛ حيث إنه يوجد الكثير الذي ينبغي علىٰ قوات حفظ السلام وصُنَّاع السلام المستقبليين أن يتعلموه من ثقافات عسكرية بديلة، ليست فقط ثقافة الشرق وإنما ثقافة العالم البدائي أيضًا، فهناك حكمة في مبادئ التقيد الفكري وحتىٰ الطقوس الرمزية نحتاج إلىٰ إعادة اكتشافها. بل إن هناك حكمة أكبر حتىٰ في إنكار القول بأن السياسة والحرب تنتميان إلىٰ السلسلة نفسها؛ فإننا إن لم نُصر علىٰ إنكار هذا القول ربما تقع مقاليد مستقبلنا -مثلما حدث مع آخر سُكان جزيرة الفصح- في أكثر الأيادي تلطخًا بالدماء.

عينة للقراءة